صناعة نقد النقد في القرن السابع الهجري
الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد أنموذجا

د/ هشام بن حميدان
د/ بنعيسى النية
كلية الآداب– الرباط(المغرب)

ملخص المقال:

إن الحديث عن الآليات النقدية لدى ابن أبي الحديد أفضت بنا إلى تسجيل خلاصات مفادها أن نقد النقد لديه لم يصدر عن منطلقات واهية، وإنما كانت له أصول وقواعد انطلق منها ليسجل ثورة على ما هو سائد من التسليم بما قاله النقاد قبله، غير أن نقد النقد في هذه الفترة كان ضعيفا خاصة وأننا وجدنا أن ابن أبي الحديد لم يكن مخلصا لنقد ابن الأثير، وإنما كانت تحركه نزعات التحدي والمضاهاة لما رأى من استزادة ابن الأثير في الإعجاب بنفسه وازدراء الآخرين.

إن الحديث عن نقد النقد في التراث العربي يرتبط أساسا بالكتب النقدية التي ألفها أصحابها منتقدين بها كتبا نقدية أخرى، غير أن الحديث عنه باعتباره نظرية قائمة بذاتها لم يتبلور إلا في العقود الأخيرة مع الدراسات المعاصرة، وبالرغم من أن هذا النشاط قديم في الممارسة النقدية العربية، إلا أن التنظيرات الحديثة هي التي سعت إلى الارتقاء به إلى درجة الكيان المعرفي النوعي ضمن كيانات العلوم الإنسانية، ويقابله من المصطلحات في النظرية الحديثة مفهوم قراءة القراءة، وتأتي محاولة عبد العزيز قلقيلة في كتابه: "نقد النقد في التراث العربي" في مقدمة المحاولات التأصيلية العربية الحديثة التي اهتمت بالبحث عن جذور نقد النقد في التراث النقدي العربي القديم، مع أن الصورة النهائية التي توصل إليها لمفهوم نقد النقد لا تتجاوز تلك الكتب النقدية التي ألفها أصحابها منتقدين كتبا نقدية أخرى، وذلك ما حدا بنا إلى خوض غمار هذا الشكل النقدي المتميز لكشف أهم آلياته ومرتكزاته المنهجية خاصة في التراث العربي، فما هي حقيقة نقد النقد؟ وما هي أهم التمايزات التي تخالفه عن النقد الأدبي؟ وبالتالي ما هي أهم آلياته ومرتكزاته المنهجية لدى صاحب الفلك الدائر؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نقد النقد من النشأة إلى التطور :

1- مفهوم نقد النقد

كما لا يخفى فإن مفهوم نقد النقد لازم المراحل الأولى للنقد الأدبي، "فهو قديم في مادته حديث في مصطلحه، له علاقة بكثير مما دارت حوله مناظرات العرب القدامى ومساجلاتهم، من قضايا أدبية وبلاغية ونقدية نظرية وتطبيقية، لم نشك في دلالتها"[1] ، ومن أوائل الذين عرفوا هذا المصطلح الناقد جابر عصفور الذي يقول: - "إن نقد النقد قول أخر في النقد يدور حول مراجعة القول النقدي ذاته وفحصه"[2]، وهو عند نجوى القسطنطيني "خطاب يبحث في مبادئ النقد ولغته الاصطلاحية، وآلياته الإجرائية، وأدواته التحليلية"[3].

ولسنا هنا للتأصيل لمفهوم نقد النقد، بل لمعرفة تبلوراته على مستوى التراث العربي خاصة مع ابن أبي الحديد في نقده لابن الأثير، فهو حسب محمد الدغمومي: "بناء معرفي وظيفي يعمل باستراتيجية واحدة وينتج معرفة تصب في مجرى المنهجيات"[4].

ويلاحظ من خلال هذا التعريف أن نقد النقد يسعى أن يكون علما أو على الأصح معرفة علمية خاصة تتولى التفكير في الطريقة التي يتم بها التفكير في الأدب.

ومن هنا وجب التنبيه إلى أن نقد النقد تفكير معرفي وجد أصلا لتتبع النقد الأدبي ومدار حركته، وطرق اشتغاله، وهذا ما يسمح له بتوسيع أفق عمله عبر رصد الحركات النقدية ومرجعيتها ونظرتها للعمل الأدبي، وما إذا كانت هذه النظرة صحيحة أم لا، وبموجب هذا سيكون ناقد النقد ملزما بفحص الفكر النقدي على اختلاف تياراته ومشاربه.

2- النقد ونقد النقد، تمايزات أولية:

وإذ نقر أن وضع تمايز واضح بين النقد ونقد النقد، قد يكون من أهداف هذه الورقة نفسها، فإننا نرى مع ذلك وضع حدود مبدئية وتمايزات أولية في محاولة لإثبات أن الأمر لا يتعلق بنوع من النقد، وأنهما شكلان مستقلان، رغم ما بينهما من التشابه والتكامل.

ولخوض غمار نقد النقد في التراث العربي لابد لنا من الإشارة إلى الفروق الكامنة بين النقد الأدبي ونقد النقد، ذلك أن موضوع النقد الأدبي يتضمن عنصرا واحدا هو دراسة الأعمال الأدبية وطرق تلقيها وتذوقها، أما حين نمعن النظر في موضوع نقد النقد فسنجده يتضمن عنصرين مختلفين:

أولهما: النقد الأدبي في مستوييه النظري والتطبيقي،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وثانيهما: الأعمال الأدبية، وهذا يعني أن موضوع نقد النقد أوسع من موضوع النقد الأدبي، لأن النقد الأدبي نفسه يقع ضمن موضوع نقد النقد[5]، وإن هذا التفريق يجعل نقد النقد معرفة مستقلة بنفسها ومكتفية بذاتها،

وبناء على ذلك اقتضى الأمر عدم التماثل والتطابق في الموضوع والغاية بين النقد الأدبي ونقد النقد، الأمر ما يستدعي إمكانية استقلال نقد النقد، وفي ذلك يقول باقر جاسم محمد: "يستلزم هذا الفرق الجوهري بين موضوع النقد الأدبي وموضوع نقد النقد بالضرورة العلمية، العمل على فكرة استقلال نقد النقد عن النقد الأدبي، كما يترتب على هذا الاختلاف في الموضوع أن يختلف نقد النقد بهذه الدرجة أو تلك عن النقد الأدبي في كل من آلياته ومصطلحاته وأهدافه التي يتبغياها، من منطلق أن نقد النقد ينطوي بالضرورة على النقد والانتقاد، ونعني به نقد الأفكار والأسس والمناهج معا"[6].

يوضح هذا النص مجال الاشتغال المشترك لكلا النقدين، وهو العمل الأدبي رغم اختلاف الآليات والأسس، والمنطلقات والمناهج، كما أن المهمات والوظائف لكليهما تختلف هي الأخرى بحسب مجال الاشتغال، حيث إن مهمات نقد النقد حسب التعاريف الحديثة ليس الاقتصار على إعادة تنظيم المادة النقدية، أو إجراء أي تعديل في النص النقدي الأدبي، **وإنما العمل على مناقشة أسسه العلمية والمنهجية، ومنطلقاته الفكرية، وانسجام نتائجه مع حقائق النص الأدبي المنقود من جهة، ومع منطلقات الناقد نفسه من جهة أخرى.**

بعبارة أخرى؛ إن من مهمات نقد النقد : "الاهتمام بجوهر الممارسة النقدية ذاتها، وتفكيك منطقها، وفحص آلياتها وإجراءاتها ومرجعيات أصحابها الفكرية والنظرية والجمالية" [7].

ومن هذه التمايزات الدقيقة بين نقد النقد والنقد الأدبي أمكن لنا تمثل هذا المفهوم والنبش في تجلياته في التراث العربي، إذ من الإرهاصات الأولى في نقد النقد ما جاء من ردود في كتاب **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**[8]، فلابد أن الموازنة قد جاءت لتحدث توازنا في المواقف النقدية المتطرفة للفرق المختلفة، وكذلك ما ورد من أفكار في كتاب **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، ويعرض إحسان عباس لمثل هذه الأفكار في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب، فالرد عادة يتم باشتغال موضوع على موضوع أخر بني على موضوع سابق، أو ما نسميه بنقد النقد، حيث أن ناقدا ما ينتقد عمل غيره، فيرد عليه صاحب العمل المنتقد أو غيره، مثل ما فعل ابن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأثير صاحب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حيث انتقد سابقيه ومعاصريه، وبعد ذلك عمد ابن أبي الحديد للرد عليه بكتابه الفلك الدائر على المثل السائر.

وقد آثرنا اختيار نموذج لنقد النقد من التراث العربي، وذلك من خلال نقد كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، هذا الأخير الذي أحدث موجة نقدية واسعة، ورجة من الخصومات، اختلف فيها النقاد بين مؤيد ومعارض.

يخبرنا عن ذلك حاجي خليفة، إذ يقول:" وصنف بعضهم كتابا أسماه الروض الزاهر في محاسن المثل السائر. وصنف عز الدين –هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد المدايني المعتزلي الشيعي المتوفى سنة 655هـ–، ابن أبي الحديد كتابا سماه الفلك الدائر على المثل السائر، أوله الحمد لله الذي فاوت بين عقول البشر، وصنف أبو القاسم بن الحسين السنجاري المتوفى سنة 650هـ كتابا يرد فيه، وسماه نشر المثل السائر وطي الفلك الدائر، وصنف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي كتابا سماه نصرة الثائر على المثل السائر، وصنف عبد العزيز بن عيسى كتابا سماه قطع الدابر عن الفلك الدائر"[9]، إن هذه الكتب الخمسة التي حددها حاجي خليفة يمكن اعتبارها المعالم الحقيقية لنقد النقد في التراث العربي، ولاشك أن هذه المؤلفات مدينة في وجودها للمثل السائر، ولعل الدافع للتأليف في هذا العلم، كان بعضه موضوعيا والأخر فيه تحاملا، وتجدر الإشارة أن نقد النقد في هذه الفترة كان يقوم في أغلبه على نشدان الحق والعدل، وعلى احترام الشخص المنقود في الأغلب الأعم، وإن كنا نُقر أن هذا الحكم يحتاج إلى تدليل، ليس هذا محلُّ إثباته.

الفلك الدائر بين دواعي الهيمنة ودعوى الجودة:

إن الإعجاب بالكتاب المنقود يعد المرحلة الأولى في نقد النقد، فلم يكد كتاب –المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر– يظهر حتى تداوله الناس وتلقوه بالكتابة والأخذ في تقريظه والانتفاع به.

غير أنَّ ابن أبي الحديد الذي حاول إنصاف سابقه، لم يستطع إخفاء إرادة إظهار براعته وإقناع القارئ بتفوقه، ووجاهة تأليفه على المثل السائر، ومن ثمَّة، – وهذا من الأمور التي ربما اختص بها نقد النقد عن النقد – وجب التعامل بحذر أكثر مع الأحكام النقدية الصادرة عن ناقد النقد، لكونه ليس ناظراً في نص شعري أو نثري، اللذين هما جنسان من القول ونمطان من المعرفة غير الجنس الذي يشترك فيه الناقد وناقد النقد، وهو "النقد"، مما يفتح المجال على باب المنافسة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والمجاملة والتحامل، الذي هو شأن المشتركين في نفس الصنعة، و فيما يأتي، تمحيص هذا الافتراض، واختبار هذا التخمين.

أما المرتكزات المنهجية والآليات المعرفية لدى صاحب الفلك الدائر فتظهر بادئ ذي بدء في اهتمامه بهذا الكتاب والنظر فيه نظر محقق وعالم بالصنعة النقدية، وبارع بالعلوم البلاغية، فهو مطالب بمؤهلات معرفية تؤهله لممارسة نقد النقد، ولن يتحقق له ذلك ما لم تتوفر فيه جملة من الشروط على رأسها: علم الناقد ومعرفته الواسعة يقول في المقدمة:- **فتصفحته أولا أولا في ضمن الأشغال الديوانية التي أنا بصددها ، وعلقت هذا الكتاب في أثناء تصفحه على المواضع المستدركة فيه إلى نصف الشهر المذكور، فكان مجموع مطالعتي له واعتراضي عليه خمسة عشر يوما-** [10]. فناقد النقد عليه أن يكون أكثر معرفة من الناقد؛ أي ملما بما ألم به الناقد الأدبي من صنوف العلم والمعرفة وزيادة، وإذ كان نظر ابن أبي الحديد في الكتاب لمدة وجيزة أهله لنقده، فهذا يدل على تمكنه من صناعة النقد الأدبي، بل وعلوم أخرى لها تعلق بالنقد كالجدل والحجاج.

إذن فابن أبي الحديد شديد الحرص، ليس على نقد ما في الكتاب، والتماس وجه الصواب فيه، بل يريد طحنه ومحوه، وهنا يحق لنا التساؤل عن ما هي الأسباب التي وصلت بابن أبي الحديد إلى هذه المرحلة من الانكباب على الكتاب والعمل على نقده؟ ويقطع علينا التساؤل والتأويل ليرد الجواب في مقدمته قائلا: **وقفت على كتاب نصر الدين بن محمد الموصلي المعروف بابن أثير الجزيرة...أما المحمود منه فإنشاءه وصناعته، وأما المردود منه...فيه فنظره وجدله واحتجاجه وأغراضه-**، وهكذا يدلنا ابن أبي الحديد منذ البداية إلى الميدان الذي سيجول فيه مع ابن الأثير، إنه جدله واحتجاجه واعتراضه.

ومن خلال قراءة معمقة في كتاب الفلك الدائر يتبين أن ابن أبي الحديد اعتمد آليات ومرتكزات منهجية يمكن إجمالها في أربع هي كالآتي:

آلية الاعتراض، آلية الردود والمؤاخذات، آلية الجدل والحجاج، ثم آلية الاستدراك،.

1- آلية الاعتراض

وكما سبق الذكر – فإن إعجاب **صاحب الفلك الدائر** بنثر ابن الأثير، وببراعته في حل المنظوم، والاقتباس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف في **المثل السائر-** لم يمنعه من توجيه نقده للرجل رغم اشتراكهما في الصنعة الواحدة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن نقد النقد الموضوعي يتجلى في الإنصاف الذي يوليه ابن أبي الحديد لابن الأثير في بعض ما يظهر له فيه الإتقان وتوخي الحقيقة، ونمثل لذلك يقول ابن الأثير: "ولا أدعي فيما ألفته فضيلة الإحسان، ولا السلامة من سبق اللسان- ثم قال بعد سطر واحد: وإذا تركت الهوى قلت إن هذا الكتاب بديع في إغرابه، وليس له صاحب من الكتب، فيقال إنه متفرد من بين أصحابه"[11]، ويعترض عليه ابن أبي الحديد في نقد موضوعي يبين فيه محل الاعتراض على قوله، إذ يقول:" وهل يدعي أحد فضيلة الإحسان بأبلغ من هذا الكلام؟ وقد قال قبل هذا التواضع بثلاثة أسطر: "إن الله هداني لابتداع أشياء لم تكن من قبل مبدعة، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة وإنما تكون متبعة"[12]، ونواصل مع ابن أبي الحديد اعتراضه هذا، حيث يقول:- فمن يزعم أن الله هداه في هذا الفن إلى ابتداع أشياء لم يسبق بها، ورزقه فيها درجة الاجتهاد التي يتبعها الناس ، كيف يقول؟ لا أدعي فيما ألفته فضيلة إلا وبلغتها؟ ويتضح من هذا كيف يعترض ابن أبي الحديد على صاحبنا في نقد موضوعي يبين فيه خطأه في الادعاء بالإتيان بما لم يسبق إليه، وتناقض قوله، مع عدم الادعاء من فضائل التأليف.

ولنتبين آلية الاعتراض في نقد النقد لدى ابن أبي الحديد، نتناول أهم القضايا التي تابعه فيها معترضا على ما ذهب، وقد اخترنا التمثيل لآلية الاعتراض نظرة ابن الأثير لقضيتي الترادف والاشتراك، وكيف تعارضت آراء كلا الناقدين حول نفس القضية، يقول ابن الأثير:-والأسماء المترادفة هي التي يتحد فيها المسمى، وتختلف أسماؤه كالخمر والراح والمدام، فإن المسمى بها شيء واحد، والأسماء كثيرة-[13]،

وكما هو معلوم قد تضاربت آراء العلماء حول الأخذ بالترادف في اللغة من عدمه، ويظهر ذلك جليا في هذه الاعتراضات النقدية لابن أبي الحديد، يقول معترضا على الترادف في اللغة واصفا ما قاله خصمه بالمغالطات:- هذا الموضع من أمثال الغلطات التي نبه عليها المنطقيون، فقالوا قد يظن في كثير من الأسماء أنها مترادفة، وهي في الحقيقة متباينة، كالسيف والصارم والمهند موضوع للمنسوب إلى الهند، فكل واحد من هذه المعاني مباين للأخر، فالأسماء الموضوعة لها متباينة في الحقيقة، وإن ظن في الظاهر أنها مترادفة-[14]، ويأتي على أمثلة ابن الأثير ليبين أنها ليست من الترادف، يقول:- وكذا ما مثل به هذا المصنف، فإن الخمر اسم موضوع لهذا الشراب المخصوص، وإن كان مشتقا غير مرتجل، والراح اسم لما ترتاح النفس إليه، والمدام اسم لما يدام استعماله، كأنه أديم يدام، فالمعاني متباينة لا محالة، وإن توهم في الظاهر أنها مترادفة-[15]، ولعل هذا الاعتراض فيه مايعزز قولنا بجدية نقدد النقد عند ابن أبي الحديد واستكمال آلياته وأدواته. إنه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يعترض عليه بناء على أسس علمية، حيث يرجع الألفاظ إلى أصلها اللغوي ليبين اختلافها وتبينها، ناقدا بذلك ما ذهب إليه ابن الأثير من ترادفها.

أما اعتراضه عليه في قضية الاشتراك اللفظي، فإنه يبين موقفه المتعارض مع ما ذهب إليه ابن الأثير وآخرون، يقول ابن الأثير:" والأسماء المشتركة هي التي تتحد، وتختلف مسمياتها كالعين"[16]، ولم يقبل ابن أبي الحديد هذا التعريف، بل اقترح زيادة حتى يكتمل النظر النقدي للمشترك اللفظي، يقول معترضا على خصمه:" ينبغي أن تزاد في ذلك زيادة فيقال هي التي وضعت لها وضعا أولا، ويكون ذلك احتراز عما يدل على شيء بالحقيقة وعلى غيره بالمجاز، فإنه متحد تختلف مسمياته، ولا يسمى مشتركا"[17]، وابن الأثير هنا لا يرفض المشترك اللفظي، وإنما تعارضت آراءهما في مسألة إردافه بالتجنيس وتأثيرهما على الإبانة والبلاغة في الكلام، ويعتبر هذا من أهم القضايا النقدية التي دار حولها اعتراض ابن أبي الحديد على ابن الأثير، حيث يقول: "أما البيان فيحصل بالألفاظ المتباينة، وأما التجنيس فإنه يحصل بالأسماء المشتركة، وهي وإن أخلت بفائدة البيان، إلا أنه إخلال يمكن تداركه بالقرينة الدالة على المراد من اللفظ المشترك"[18]، وفي هذا ينكر عليه ابن أبي الحديد أشد الإنكار، يقول:"والعجب من قول هذا الرجل: إن عدم التجنيس يذهب حسن الكلام، وقوله: إن واضع اللغة نظر إلى ما تحتاج إليه الفصاحة والبلاغة، فوجد من مهمات ذلك التجنيس الذي لا يقوم إلا بالأسماء المشتركة، وليت شعري كيف تحتاج البلاغة إلى تجنيس؟ أتراه يعلم ما البلاغة؟ ألم يسمع كلام عبد الحميد بن يحي وابن المقفع ومن جاء بعدهما من الكتاب، ومن كان قبلهما من فصحاء العرب الذين كلامهم محض البلاغة فهل ترى لأحد منهم تجنيسا في كلامه، اللهم إلا أن يقع ذلك اتفاقا غير مقصود"[19]، ويبدو من اعتراض ابن أبي الحديد أنه ليس من أنصار اللفظ، ولا تدعوه صناعته إلى الاهتمام بالصناعة البديعية على حساب المعنى المبتغى من الكلام، وهي حقيقة نقدية تنبه إليها سابقوه من النقاد.

وارتباطا ببلاغة الكلام نعمق النظر مع ابن أبي الحديد في بعض اعتراضاته على ابن الأثير حول آلات علم البيان وأدواته من ذلك ما ذهب إليه هذا الأخير من أن "صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة، وثقافة متنوعة، وقد قيل ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم، ويخوض في كل فن، وملاك هذا كله الطبع، فإنه إذا لم يكن ثم طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئا"[20]، وقد اعترض ابن أبي الحديد على هذا بأنه من دعاوى الكتاب وتزويقاتهم، ولا يعول عليه محصل؛ لأن الفنون التي يذكرها الكتاب، ويزعمون أن الكتابة مفتقرة إليها، إن أرادوا بها ضرورتها لها فهذا باطل، لأن سحبان وائل وقس بن ساعدة وغيرهما من خطباء العرب ما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت تعرفها، كذلك من كان في أول الإسلام من الخطباء كمعاوية وزياد وغيرهما، وإن أرادوا أنها متممة ومكملة فهذا حق، لكن عدمها لا يقتضي سلب اسم الكتابة، مع أن ما يحتاج إليه الكاتب يحتاج إليه الشاعر وزيادة"[21]، ويبدوا من اعتراض ابن أبي الحديد هذا أنه أغفل عما تنبه إليه ابن الأثير من ضرورة الثقافة للكتاب، ولم يكن ناقد النقد موفقا في تمثيله بقس وسحبان ومعاوية وزياد، لأن هؤلاء خطباء، ولم يعرض ابن الأثير لثقافة الخطباء، بل عرض لثقافة الكتاب والشعراء، وفي هذا ما يدل على عجلة القراءة، والتسرع في الحكم على ابن الاثير.

إن المطالع لما كتبه ابن الأثير في هذا الفصل يجده قد أشرك الشعراء مع الكتاب في ألوان الثقافة، وقد اختص الشعراء بنوع منها هو علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر، فلا محل إذا لاعتراض ابن أبي الحديد بقوله: "مع أن ما يحتاج إليه الكاتب يحتاج إليه الشاعر وزيادة".

من خلال الأمثلة السالفة الذكر يتبين لنا أن آلية الاعتراض أسعفت ابن أبي الحديد في نقد كثير من النقد مما ذهب إليه ابن الأثير في آراءه ورؤاه النقدية.

2- الردود والمؤاخذات

إن بعض نقد ابن أبي الحديد يبدو فيه متحاملا قاسيا على ابن الأثير، وإن كانت السمة الغالبة على كتابه أنه في نقد النقد الموضوعي، معززا ذلك بالبراهين والأدلة، فنجده يقول على سبيل المثال لا الحصر"إن هذا الموضع من المواضع التي اشتبهت على هذا الرجل"، وقوله:" وهذا من الغلط على ما تراه".

ويظهر ذلك جليا من خلال التمثيل لنظره في بعض القضايا المعروضة في المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، من ذلك قول ابن أبي الحديد في معرض رده حول علم البيان وتميزه بالذوق عن علم النحو المتصل بتقليد ما تعارف عليه النحاة من قبل حسب ابن الأثير22، يقول: " إن كان هذا الرجل ممن ينفي القياس في الشرعيات كلمناه كلاما أصوليا كما تكلم الشيعة والنظام وأهل الظاهر وغيرهم ممن نفى القياس في الفقه، وإن كان يعترف بالقياس في الشرعيات، فالقياس في الشرعيات كالقياس في النحويات"23 ، وفي هذه الردود والمؤاخذات يستعرض ابن أبي الحديد طول باعه، وقوة عارضته في العلوم الشرعية واللغوية ببيان سقطات ابن الأثير المخالفة لما ذهب إليه علماء العربية، فهو في هجومه هذا منطقي عقلاني يقيس النحو على الفقه.

وإذا كان ابن أبي الحديد قد آخذ على ابن الأثير إعجابه بنفسه، وإشادته بكتابه، فإن صاحب الفلك الدائر قد تورط في مثل هذا الشنيع، من ذلك قوله: "وقد كنت شرعت في حل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سينيات المتنبي، وأن أجعل ذلك كتابا مفردا، وأنا أورد هاهنا بعض ذلك، ليكون معارضا لما جاء به هذا الرجل، ويقصد ابن الأثير، ومن ذلك أنه أورد مثالا من نثره في حل بيتي المتنبي:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا   وموج المنايا حوله متلاطم

وكأن بها مثل الجنون فأصبحت   ومن جثث القتلى عليها تمائم

وأورد مثالين لابن الأثير في حل البيتين، ثم قال:" ومن عنده أدنى ذوق في فن الكتابة يعرف الفرق بين كلامنا وهذا الكلام"24 .

إنه هنا يحكم مقياس الذوق، وليس هنا الحديث عن الذوق العادي وإنما الذوق المقرون بالدربة وطول المراس للصناعة النقدية، وكما هو معلوم فإن النقد الأدبي ونقد النقد قد نهضا في هذه الفترة على أسس من الذكاء والذوق.

ولعل آلية الموازنة والمقارنة بين ناقدين عاشا في نفس الفترة ما ينبئ عن رواج نقد النقد وازدهاره في هذه المرحلة، وإمعانا في الرفع من شأن نقده لابن الأثير يتابع قائلا حول المنظوم من بيتي المتنبي:"وهذا وإن كان حسنا، لكن الزيادات العجيبة والتسميطات والأسجاع التي أتينا بها نحن تزري على ما أتى به هذا الكاتب، وتتجاوزه أضعافا مضاعفة"[25]، ومن هذا الإعجاب بالذات الناقدة ما أشار إليه ابن أبي الحديد في المقدمة من الزهو بعلماء بغداد والافتخار بأدبائها، وتفضيلهم على من سواهم تفضيلا مبالغ فيه، وإن كان قد حاول إخراج نفسه من زمرة من أشاد بهم.

وفي ختام **الفلك الدائر** يطالعنا ابن أبي الحديد بقضية نقدية يمكن اعتبارها من نقد النقد مرتين، مرة لأن ابن الأثير تعقب فيها أبا إسحاق الصابي ونقده، ومرة لأن ابن أبي الحديد لم يرض عن ابن الأثير في هذا النقد فنقده، يقول ابن الأثير في ختام المثل السائر: "وإذا فرغت من تصنيف هذا الكتاب، وحررت القول في تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة، والكشف عن دقائقهما وحقائقهما، فينبغي أن أختمه بذكر فضيلتهما فأقول: "اعلم أن هذا الفن هو أشرف الفضائل وأعلاها درجة ولولا ذلك لما فخر به رسول الله في عدة مواقف فقال تارة:"أنا أفصح من نطق بالضاد، وقال تارة: أوتيت جوامع الكلم، وما سمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشئ من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة، وينتقل ابن الأثير إلى قضية المفاضلة بين الشعر والنثر فنجده يقول والمنثور أشرف من المنظوم لأسباب من جملتها:

أن الإعجاز لم يتصل بالمنظوم وإنما اتصل بالمنثور.

وأن أسباب النظم أكثر"[26].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي نقد مطول لابن الأثير على الصابى آثرنا عدم إيراده لطوله، ينقده في قضية الفرق بين المنظوم والمنثور من أوجه عدة عدها ابن الأثير في ثلاثة أمور نوجزها في الأتي:

الأول: من جهة نظم أحدهما ونثر الآخر، وهذا كما يقول فرق ظاهر.

الثاني: أن من الألفاظ ما يعاب استعماله نثرا ولا يعاب نظما/ وقد مثل له بمثال من الشعر.

الثالث: أن الشاعر إذا أراد شرح أمور مطولة، لم يسعفه ذلك، والكاتب يتأتى له ذلك.

وفي هذه المحاورة النقدية يدخل ابن أبي الحديد ناقدا ثالثا على ابن الأثير ليرد كثيرا مما قاله مؤاخذا عليه في هذه الفروق، لنجد نقده هو الآخر يتجلى في ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: موقف الموضح لبعض الجوانب بأكثر مما فعله ابن الأثير وهو يعقب على الصابى، كتبريره المقنع لغموض الشعر، وشرح المقصود من هذا الغموض، موردا أمثلة من الشعر العربي، وفي هذا السياق يظهر كأن ابن أبي الحديد قد نصب نفسه للدفاع عن مذهب الصابى.

الموقف الثاني: تطوعه بالإجابة عن بعض تساؤلات ابن الأثير، ويورد في ذلك أمثلة مناقشا ابن الأثير في قضية اشتراط السجع في المنثور من عدمه.

الموقف الثالث: وهو موقف المستدرك على ابن الأثير بما لم يقله أصلا، أو بما قاله ولم يتمم الكلام فيه، ولعل هذا الموقف الأخير أدخل في نقد النقد من سابقيه، فبعد أن أورد الفروق التي ذكرها ابن الأثير بين الشعر والنثر نجده يستدرك قائلا: " قد بينا أن الصابى لم يتعرض لبيان الفرق بين الكتابة والشعر، من حيث هما كتابة وشعر، وإنما تكلم عن العلة التي كانت لأجلها مرتبة الكاتب أعلى من مرتبة الشاعر، فأما الفروق بين الكتابة والشعر فهي كثيرة وليست مقصورة على هذه الوجوه التي ذكرها هذا الرجل، -يقصد ابن الأثير- ، وبذلك عد الفروق الزائدة على الثلاثة المذكورة يقول ابن أبي الحديد:" والفروق بين الشعر والكتابة كثيرة، وإنما نبهنا على بعضها إبطالا لقوله: إن الفروق هذه الثلاثة فقط.

بهذا الاستدراك القويم، والتحدي النقدي الصائب أنهى ابن أبي الحديد فلكه الدائر، فاعتبر بذلك نقده هذا من أقوم وأرجح ما قيل في نقد النقد لابن الأثير، وبذلك أمكن لهذا النقد الحواري أن يلعب دورا جديدا في مجال تأصيل المعرفة النقدية، غير أنه لا يتشكل ضمن معرفة مهيكلة في قوالب وقواعد بقدر ما تؤسس لحوار مفتوح يشمل داخل وخارج النص المتحاور معه، فهو بصيغة أصح بحث جماعي عن الحقيقة[27].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- آلية الجدل والتأويل:

يظهر ذلك منذ الوهلة الأولى حين اعتراضه على طريقة ابن الأثير في الثناء على الله عز وجل ، وطلب بلوغ غاية الحمد، وفي هذا تظهر عارضة ابن أبي الحديد وقوة شكيمته وبراعته وتقدمه في علم الكلام على مذهب المعتزلة، كلفا بالعلوم الشرعية والأدبية، ومثال جدله ورده على ابن الأثير في تعريفه للمثل، حيث يقول: "وحد المثل هو القول الوجيز المرسل ليعمل عليه"28، وعلى ذلك يقيم ابن أبي الحديد براهين وأدلة تبين استخدامه لآلية الجدل والحجاج، يقول:"هذا باطل لقوله تعالى: (أقيموا الصلاة)، سورة البقرة، الآية:[43]، فإنه قول وجيز أرسل ليعمل عليه، وليس بمثل، وأيضا فإن أراد بقوله ليعمل عليه، أي ليعمل بموجب ما فيه من الاقتضاء والطلب، فهذا باطل بأكثر الأمثال، نحو قولهم، هو أفعل من كذا، وإن أراد بقوله ليعمل عليه أن يستعمل في الموضع اللائق، فكل بيت شعر من أشعار الجاهلية والمحدثين قول وجيز مرسل يستعمل في موضع يليق به، وذلك يقتضي أن يكون الشعر كله أمثالا، ولم يقل بذلك قائل، والصحيح أن يقال المثل يطلق على نوعين أحدهما ما قصد به المبالغة بلفظ أفعل، كقولهم: أشغل من ذات النحيين، والثاني كل كلام وجيز منثور أو منظوم قيل وفي واقعة مخصوصة تضمن معنى وحكمة، وقد تهيأ بتضمنه ذلك لأن يستشهد به في نظائر تلك الواقعة"[29] ، وفي هذا يعمل ابن أبي الحديد على توظيف آلية الجدل ليبين لابن الأثير بطرق البراهين تعدد أوجه المثل، وليس الاقتصار على ما ذهب إليه، لكن والحق يقال إنما هو جدل ولجاج حول موضوع لم يأل ابن الأثير فيه جهدا، بل وفاه حقه من الدراسة والتمحيص، لكن عصبية ابن أبي الحديد لرأيه جعلته يقلب الكلام في حد المثل على وجه التفصيل.

أما آلية التأويل فإننا نجده قد ارتكز عليها في جل كتابه، ويظهر ذلك من خلال قوله: "وهذا يحتمل وجهين من التأويل"[30]، وكذلك قوله في الرد على ابن الأثير في معرض تناوله لبعض الآيات القرآنية قصد بيان الترجيح بين الحقيقة والمجاز في لفظ الجلود من قوله تعالى:"حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون"[31]، يقول: "إن تأويلات الباطنية لآيات الكتاب العزيز أوقع وأقرب إلى العقل من هذا التأويل، وكيف يجوز أن ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله أنه أراد هذا المعنى"[32]، وقد اختار ابن الأثير حد الكناية وشرع يبرهن عليها بأدلة من الشعر والنثر، لكن ابن أبي الحديد يجادله مرة أخرى في ضرورة عدم البرهنة على ما هو متعارف عليه وحاصل بالضرورة، يقول: "إنا ما عرفنا أن الحدود يبرهن عليها، ولا هي من باب الدعاوى التي تحتاج إلى الأدلة، لأن من وضع لفظ الكناية لأمر من الأمور لا يحتاج إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دليله.... ثم يقال أهذا الاستدلال هو استدلال على أن الكناية هي ما جاز حمله على واحد من محملي الحقيقة والمجاز، أم أن الكناية لابد أن يتجادبها جانبا حقيقة ومجاز، مع قطع النظر عن جواز الحمل عليها وعدم جوازه؟ فإن أردت الأول فالاستدلال لا يماثل ذلك بحال، ولا تعلق له به، وإن أردت الثاني فإن أصحاب علم البيان قبلك لم يخالفوك في ذلك لتحاجهم وتعيب عليهم..."، وقد أودنا هذا النص رغم طوله لأن فيه يظهر لنا استعماله لآلية الجدل والحجاج ، فابن أبي الحديد يستحضر ثقافته الكلامية، وقوة حججه وكثرتها لمناظرة خصمه وإفحامه عن طريق الجدل والحجاج، وهي آلية اعتمدها بقوة للدفاع عن طروحاته النقدية.

4- آلية الاستدراك:

لم يكن ابن أبي الحديد ليؤلف فلكه الدائر دون قصد، وإنما كان من بعض بواعثه الاستدراك على ابن الأثير، خاصة في بعض القضايا التي يظهر له أنه لم يوفها حقها من التحقيق والتدقيق، ومن ثم نجده قد استدرك عليه في قضايا متنوعة من الكتاب نكتفي منها بمثالين اثنين، من ذلك حديثه عن اللفظ يتأول في المعنى وضده، يقول ابن الأثير:"اللفظ قد يتأول في المعنى وضده، وقد يتأول على المعنى وغيره الذي ليس بضد، والأول أغرب وأطرف"33، وضرب لذلك مثالا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام"، قال: فهذا الحديث يستخرج منه معنيان ضدان، لكن ابن أبي الحديد ينقد ما ذهب إليه من احتمال اللفظ معنيين متضادين، وليس الأمر كما توهمه هذا الرجل"، ويواصل استدراكه قائلا: "فقد ظهر أنه لم يصب في قوله إن هذا الحديث يمكن أن يستخرج منه معنيان ضدان، هما أفضلية مسجده عليه السلام للمسجد الحرام، والأخر أفضلية المسجد الحرام لمسجده عليه السلام؟ لأنا قد بينا أن الحديث إنما يدل على أن حكم المسجد الحرام مخالف لما قد حكم به في حق مسجده وبقية المساجد، ولا يدل لي شيء أخر لا في هذا ولا في ذاك، لكن المخالفة المدلول عليها يمكن انقسامها إلى أفضلية كل واحد منهما، وإلى تساويهما أيضا"[34]، فيتضح من هذا المثال أن ابن أبي الحديد كانت رؤاه تختلف عن ابن الأثير، وما أرى ذلك إلا نقدا يتسم بجدل لغوي يقلب فيه ناقد النقد الوجوه اللغوية الممكنة، وذلك للاستدراك عليه في أمور قد يكون فيها الخلاف عرضيا وليس جوهريا، وإليك مثال آخر يخص قضية المدح والذم في شعر المتنبي في كافور، وكيف أنه يحتمل المدح والذم، يقول ابن الأثير مبينا معنى بيت المتنبي:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا   لمن بات في نعمائه يتقلب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بأنه يمكن أن يستخرج منه معنيان ضدان، أحدهما أن المنعم عليه يحسد المنعم، والآخر أن المنعم يحسد المنعم عليه[35]، ويستدرك عليه ابن أبي الحديد في هذا قائلا: " أما أولا فإن هذين المعنيين ليسا بضدين، لأنه يجوز اجتماعهما"[36]، ويعضد قوله بأدلة السياق الشعري ذلك أن معنى البيت الشعري " ليس مترددا بين المدح والذم كما قد توهمه قوم؛ لأن سياق الشعر يقتضي أنه أراد المدح لا الذم، وإذا كان كذلك فسياق هذا الشعر يقتضي أنه أراد أن المنعم عليه يحسد المنعم، لأنه قال:

تريد بك الحساد ما الله دافع وسمر العوالي والحديد المدرب

إذا طلبوا جدواك أعطوا وحكموا وإن طلبو الفضل الذي فيك خيبوا

ولو جاز أن تعطي علاك وهبتها ولكن من الأشياء ما ليس يوهب

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب[37]

فهذا يدل على أن الممدوح يعطي هؤلاء وهم يحسدونه، وإذا كان السياق يدل على أنه أراد هذا المعنى خرج من كونه دالا على معنيين ضدين كما حكم به في البيت المتقدم"[38]، وابن أبي الحديد بهذا الذي قاله قد صحح نظرا شائعا في نقد الكافوريات لدى نقاد شعر المتنبي خاصة في مدائحه، وفي هذا من الاستدراك على ابن الأثير ما يجعل الفلك الدائر يعد في دائر نقد النقد رغم صبغته الجدلية والحجاجية...

ومن نقد النقد بمعناه التفسيري ما جاء في الفلك الدائر نقدا موضوعيا لابن الأثير، الذي عمل على تعريف الإيجاز بقوله:"هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه، والتطويل ضد ذلك كقول العجير السلولي:

طلوع الثنايا بالمطايا وسابق إلى غاية من يبتدرها يقدم

فصدر هذا البيت فيه تطويل لا حاجة إليه، وعجزه من محاسن الكلام المتواصفة، وموضع التطويل من صدره أنه قال: طلوع الثنايا بالمطايا، فإن لفظة المطايا فضلى لا حاجة إليها.

خاتمة:

إن الحديث عن الآليات النقدية لدى ابن أبي الحديد أفضت بنا إلى تسجيل خلاصات مفادها أن نقد النقد لديه لم يصدر عن منطلقات واهية، وإنما كانت له أصول وقواعد انطلق منها ليسجل ثورة على ما هو سائد من التسليم بما قاله النقاد قبله، غير أن نقد النقد في هذه الفترة كان ضعيفا خاصة وأننا وجدنا أن ابن أبي الحديد لم يكن مخلصا لنقد ابن الأثير، وإنما كانت تحركه نزعات التحدي والمضاهاة لما رأى من استزادة ابن الأثير في الإعجاب بنفسه وازدراء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الآخرين، رغم تأكيده على التزام أصول نقد النقد حيث يقول: "وينبغي للناس إذا حكوا شيئا شرعوا في نقضه أن يتأملوا ما حكوا ثم ينقضوه"[39]، وفي ذلك كان تحدي ابن أبي الحديد لإثبات ذاته وقبيلته كما ورد في المقدمة على لسانه، غير أن الآليات النقدية التي ابتغاها في نقد الكتاب لم تسعفه بقوة، وربما يرجع ذلك لوجيز الفترة التي اطلع فيها على المثل السائر، وإلا كان ناقدا للنقد في صورة أحسن مما ظهر في فلكه الدائر، وما يؤكد كلامنا هذا انبراء الصفدي في الدفاع عن الفلك الدائر بتأليفه لكتاب نصرة الثائر على المثل السائر، فهو ردف للكتاب وتتمة له إن لم نقل استكمال لما بدأه ابن أبي الحديد.

هوامش البحث:

---

[1]– في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره، نجوى الرياحي القسطنطيني، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 38،يوليوز– شتنبر 2009، ص:51

[2]– قراءة في نقاد نجيب محفوظ، جابر عصفور، ملاحظات أولية، 1981،

[3]– في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره، نجوى الرياحي القسطنطيني، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 38،يوليوز– شتنبر 2009، ص:51

[4]– نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، محمد الدغمومي، منشورات كلية الأداب بالرباط، الطبعة الأولى،1999، ص:52

[5]–نقد النقد أوالميتا نقد، محاولة في تأصيل المفهوم، ص:118

[6]–المرجع نفسه، الصفحة:29

[7]– في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره، ص:35

[8]– ألف قدامة بن جعفر نقد الشعر فتعقبه الحسن بن بشر الآمدي بكتاب سماه تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر، وأبو الحسن ابن رشيق القيرواني بكتاب سماه تزييف نقد قدامة، منقول من كتاب قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، بدوي طبانة، ص: 403

[9]–كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب حلبي، المعروف بحاجي خليفة، تحقيق محمد شرف الدين، ورفعة بيلكه الكليسي، طبع بعناية وكالة المعارف الجديدة، 1943، ج2، ص:1586.

[10]–المقدمة، ص: 30

[11]–مقدمة الفلك الدائر، ص:34

[12]–الفلك الدائر على المثل السائر، ص:34.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[13]-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،46

[14]- الفلك الدائر، ص:43

[15]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[16]- قال ابن الأثير: كذلك يحتاج الكاتب إلى معرفة الأسماء المشتركة، ليستعين بها على استعمال التجنيس في كلامه، وهي اتحاد الإسم واختلاف المسميات، كالعين، فإنها تطلق على العين الناظرة وعلى ينبوع الماء وعلى العطر وغيره......المثل السائر، ص:50

[17]- الفلك الدائر، ص:44

[18]- المثل السائر، ص. 51

[19]- الفلك الدائر، ص: 46

[20]- المصدر نفسه، ص:27

[21]- المصدر نفسه، ص:27

[22]- يقول ابن الأثير: (واعلم أن البيان علم عقلي يدرك بالذوق والعقل، حسنه من قبحه، وليس كعلم النحو، فإنه تقليد العرف)، المثل السائر: 1-119

[23]- الفلك الدائر، ص: 93

[24]- المصدر نفسه، ص:104

[25]- الفلك الدائر، ص:104

[26]- الفلك الدائر، ص:306

[27]- نقد النقد، تزيفيتان تودوروف، ترجمة سامي سويدان، الطبعة الأولى:1986 منشورات مركز الإنماء القومي بيروت، ص:151

[28]- المثل السائر،1-62

[29]- الفلك الدائر، ص:53، ومن جدله لابن الأثير حديثه عن المثل وتعدد الآراء فيه، وفي ذلك يكثر الجدل حول أحقية المعنى من عدمه لدى كلا الناقدين.

[30]- وردت هذه الكلمة عنده في مواضع عدة، يوضح فيها احتمال اللفظ لأكثر من معنى، أو فساد تأويل ما ذهب إليه ابن الأثير.

[31]- سورة فصلت، الآية 20.

[32]- الفلك الدائر، ص: 77

[33]- ملخص قوله من المثل السائر، 76/1

[34]- الفلك الدائر، ص: 57.

[35]- المثل تاسائر، 77/1

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[36]- الفلك الدائر، ص:58

[37]- من قصيدته في مدح كافور التي مطلعها: أود من الأيام ما لا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده

[38]- الفلك الدائر، ص:59، وأمثلة استدراكه عليه كثيرة نذكر منها حديثه عن القياس عند الشعراء، انظر الصفحة: 238-242

[39] - الفلك الدائر، ص:224

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com